القفص

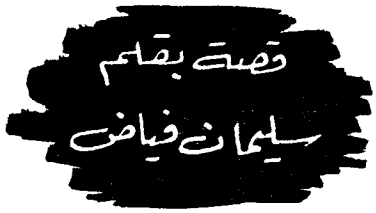

١ ـ حلم الشاعر :

امتدت يده الضخمة . تركزت عين العصفور على يده ، وجل العصفور مفزعا . تراجع الى الخلف محتميا بوليفه . كفا عن الشدو. ارتفعت عين العصفور الى أعلى اليد . عبرت نظرته المعصم ، فالساعد، فالعضد . تسلقت الكتف ، فالعنق . سقطت نظرته على الوجه . عينان منداتان بالاسى . هدأت ارتجافة العصفور في القفص . لكن القفص اهتز بعنف . سقطت نظرته من حالق الى اليد . اليد اختفت . باب القفص مفتوح . لا أسلاك هناك . رنا الوليف الى وليفه . اربع عيون راحت تنظر الى الباب المفتوح . أدار العصفور ظهره للباب . راح منقاره يلقط الحب . قفز الى حافة الماء . اخذ يشرب . رفع عينيه . رأى الخلاء الحر ، تتناثر فيه جدران ، فوقه يمتد شريط أزرق ، وطائر يرفرف . بدا العالم رائعا خارج القفص . تداخلت المعالم ، وانساب البحر تحته . راح يرفرف متعبا ، يخشى السقوط . تشابكت الاغصان من حوله . أخذ يقفز بينها ، محاذرا من الطيور الكبيرة ، محاذرا ان ترتفع بندقية صياد ، حصاة مارقة ، الى اعلى ، من يد طفل . يتعبه البحث عن حبة قمح ، رشفة ماء في جدول بلا أمواج . عاد يرشف من ماء القفص . استدار هانئا . فليبق الباب مفتوحا او يغلق . أخطار الخلاء ما زال يذكرها . جناحاه نسيا الطيران. القفص عامر بالحب والماء . الاسلاك تدعوه كالاغصان للغناء . رنا الوليف الى وليفه . تلفت حوله . لا شيء سوى الاسلاك ، والحب، والماء ، والباب المفتوح . الوليف طار . سيعيش وحيدا في القفص ، مع الاسلاك ، والحب والماء . وحيدا بلا وليف !

وحيدا بلا وليف ؟

طار العصفور من باب القفص . هبط على حافة الشرفة . جسده يهتز . جناحاه ترتعدان . تلفت حوله باحثا عن الوليف . طار في الخلاء المائع . ارتفع وانخفض . شرق وغرب . عاد يبحث عن القفص. رأى الحب والماء ، والاسلاك . باب القفص مفتوح ما يزال . دخل القفص مرفرفا بجناحيه . انطوى في أسى على نفسه ، مع الحب ، والماء ، والاسلاك . مد منقاره تحت جناحه ، دفنه ونام ، يحلم بالوليف . اهتز القفص مرة اخرى . وقعت عيناه على اليد . اليد لا تغلق القفص . اليد تمتد الى داخل القفص . اليد تجذبه من داخل القفص . اليد تضعه برفق على حافة الشرفة . اليد تدفعه للطيران. اليد تحمل القفص وتختفي. يرتفع العصفور مرفرفا بجناحيه، وينخفض . يشرق ويغرب ، باحثا عن الوليف . باحثا عن القفص .

٢ ـ العبد :

ناداه السيد :

ـ أيها العبد .

ـ لبيك يا سيدي .

ـ لست من اليوم سيدك .

ـ وانا ؟ لست عبدا ؟

فالها العبد بفرح . بحزن قال السيد :

ـ نعم ، أيها العبد . اذهب الآن .

ـ لكنني عبدك . لا أحد لي سواك .

ـ اذهب أيها العبد .

ـ بعتني أيها السيد ؟

ـ لا أيها العبد .

ـ عبد من ساكون اذن ؟

ـ عبد نفسك . مثلي .

ـ نفسي ملك لك . أنا وما ملكت يميني ملك لك .

ـ أنت حر أيها العبد . اذهب من هذا البيت .

ـ انا أيها السيد . أمرك أيها السيد .

ـ لست سيدك .

ـ أمرك يا مولاي .

ـ أف . اذهب . انتظر . خذ .

وضع السيد عشرة جنيهات في يده .

ـ الآن . اذهب .

ـ أذهب ؟ كيف ؟

ـ انت حر .

ـ الى أين ؟

ـ انت حر .

ـ حر ؟

ضحك العبد .

ـ هذه نكتة .

ـ بل انت حر .

وضع يديه على كتفي عبده .

ـ اذهب أيها العبد . وكن سيدا أيها العبد .

ـ سيدا ؟ لم أولد سيدا . لم أعش يوما سيدا . كيف اكون الآن سيدا ؟ بعد هذا العمر ؟ لا .

ـ اخرج أيها العبد . أمرني السادة الاكابر بطردك .

ـ تقصد بموتي ؟
ـ بمنحك حريتك أيها العبد .
ـ لكنك تقتلني أيها السيد . لم أخنك يوما . ولقد أحببتك . جعلتك لي أبا . توجتك ملكا .
ـ اذهب أيها العبد . تذكر انني كنت اهينك ، أجيعك ، أنيمك مع البهائم ، أضربك بالسوط .
ـ أنا عبد . والعبد يهان ، ويجوع ، ويضرب بالسوط ، وينام مع البهيمة . اهانتك لي تعني انك تذكرني . تجويعك لي يعني انك ستطعمني . ضربك لي بالسوط يعني انك تحبني . ألست تؤدب ولدك؟ لا تقتلني الآن .
ـ هم يقتلونك ، ويقتلونني . اذهب . لا حيلة لي ، أو لك .
ـ سأذهب . أمرك يا سيد .
خرج من بيت السيد . لم يكن حزينا ، ولا فرحا . كان مرفوع الرأس . فلقد اتخذ قرارا لاول مرة . ان يبقى ولا يذهب .
« لن أذهب أبدا » .
وعلى باب بيت السيد . جلس العبد السابق للسيد ، منتظرا أن يدعوه السيد ، او ابن السيد ، او حرم السيد . في ذات نفسه يحدث السيد . « كم أنت طيب ايها السيد » . وتصدقهم أيها السيد ؟ »

٣ ـ السجين :

فتح السجان باب الزنزانة . باب العنبر . نادى :
ـ محمود عبد الصمد .
رفع بصره اليه ، من فوق برشه .
ـ تعال هنا .
سار متثاقل الخطى .
ـ نعم .
ـ افراج .
ـ افراج ؟
ـ نعم .
ـ افراج ؟ عمن ؟
ـ عنك انت .
ـ أنا ؟
ـ نعم أنت . محمود عبد الصمد . مبروك .
ـ لن اخرج .
ـ ستخرج .
ـ لـن أخرج .
ـ عشرة أعوام ، ولم تشبع ؟
ـ أشبع . السجن بيتي .
ـ بل ستعود الى بيتك .
ـ لا بيت لي . هذا بيتي .
ـ كان بيتك .
ـ ما يزال بيتي .
ـ اليوم افراج . من يكره الفرج ؟
أمسك السجين بالسجان وهزه :
ـ دعني .
ـ اذهب .
ـ لن أذهب .
دفعه السجان امامه :
ـ سر امامي .
التفت للسجان :
ـ هل ستخرج معي ؟
ـ أنا ؟ ها ها .. هذا بيتي . وهنا الطعام والشراب .
من الباب الكبير للسجن دفعه :
ـ اذهب .
واغلق الباب وراءه . أخذ يدق الباب بقبضتيه :
ـ هذا بيتي . هذا بيتي .
دميت يداه . سجد يبكي . حين نهض ، نادى على الرفاق ، ناظرا الى الكوى ، والقضبان :
ـ البرش لي . البرش . برشي . فليحذر أحد أن ينام عليه . حافظوا على برشي .
أخذ يجرجر قدميه ، محني الرأس . لا شيء سوى الصحراء . في الصحارى عقارب وحيات . وراء الصحراء : الناس . وقف فوق الهضبة . رأى بيتا شامخا ، عزيزا ، ومهيبا . رأى السجن فـــي أعلاه الحراس . كور قبضتيه . رفعها متوعدا ، واعدا ، معاهدا :
ـ سأعود . سأعود الى برشي . سأسرق . بل سأقتل .
همس لنفسه وهو ينزل يده : « من جديد سيمسكني الشرطي » . « سيضربني الناس والشرطي » . « سأشعر اني مساق الى الموت » . « لكني سأقدم شهادة ، تفتح لي باب السجن . باب بيتي . بـــاب الزنزانة . باب العنبر . حيث برشي ، والطعـــــام ، والشراب ، والجدران التي تحمي . يصبح لي الشرطي صديقا . لا يخاف أحدنـــا من الآخر . لا السجين ، ولا السجان » .

٤ ـ المدرس :

كان الجو غائما ، مضببا ، مثلما بين اليقظة والنوم ، بين النور والظلمة ، بين الواقع والحلم . كان الجو رماديا . شعره صـــار أسود أبيض . شعرة بيضاء ، وشعرة سوداء . وجهه مستطيل أعجف . عيناه بلا بريق . زجاجيتان . لا تنظران الى الداخل . لا تنظران الى الخارج . بشرته داكنة الحمرة ، مزرقة ، كدجاجة مريضة ، منتوفة الريش . كمريض بالقلب ، يوشك ان يصمت صمتا ابديا . مرآه يذكر بحديدة علاها الصدأ . بماء قد ركد منذ عهد بعيد . ملامحه محددة . ولكنه ، كله ، كالزئبق . (صار تحدده بلا وظيفة) . يستوعبه كـــل وعاء : راحة كف . ترمومتر . سطح أملس . لا طعم له . لا لون له . لا رائحة . لا فائدة منه ولا ضرر . لا خير ولا شر . لا جد ولا هزل . منفيّ في حجم كتلته . معك معك . مع كل أحد . ليس عليك أبدا . ليس على أحد . أي أحد . في يده حقيبة ملأى أبدا بالورق : ورق العام الماضي . ورق العام الحالـــي . ورق العام المقبل . أي ورق . حقيبته سوداء . بنطلونه رصاصي . كتفاه مشجب ، محنى الطرفين ، محنى العنق ، كالاحدب . قالوا له يوما :
ـ قف هنا ، امام باب هذه المدرسة . لم ؟ لا تسأل .
ولم يكن قد سأل أبدا .
ـ هذا أمر . نفذه . حتى يصدر أمر آخر .
وقف في الجو الرمادي الغائم المضبب . بين اليقظة والحلم ، وقف . فكر لحظة ، لحظة خاطفة ، في البيت ، والزوج ، والولـد . حسم الموقف . فلينتظروا . ولينتظر . قالوا له :
ـ قف هنا .
فليقف هنا .
قالوا له :
ـ لا تتحرك . لا تتكلم .
لن يتحرك . لن يتكلم . أول الشهر يعطونه راتبا . أول العـــام يعطونه علاوة . في السنتين يعطونه معاشا ، حتى بعد الموت ، للزوج ، وللولد . فليقف هنـــا . لا يتحرك . لا يتكلم . من اجل الراتب ، والعـــلاوة ، والمعاش ، والزوج ، والولد . مر يوم . مر أسبوع ، مر شهر . مر عام . مرت عشرة أعوام . مرت مائة عام ، ألف عام . وظل واقفا . لا يتحرك . لا يتكلم ، فلقد قالوا له :
ـ قف هنا .

مات الكل من حوله . لم يعد يرى أحدا ، أو يسمع أحـــدا . المدرسة ذهبت كالشعاع . الحي اختفى كالشعاع . المدينة اندثرت . صارت أطلالا ، أحجارا . بدأ يسأل :

ـ أين ذهبت المدرسة ؟

ـ . . . . . .

ـ أين ذهب الحي ؟

ـ . . . . . .

ـ أين اختفى الناس ؟

ـ . . . . . .

ـ متى حدث ذلك ؟

ـ . . . . . .

لقد قالوا له :

ـ قف هنا .

وها هو واقف .

بدأ يسأ نفسه :

ـ لكن المدرسة ذهبت ، والحي ذهب ، والمدينة ضاعت ، والناس اختفوا ، فلم أقف هنا اذن ؟

لم يكن هناك أحد ليجيبه . ولم يقدر ان يجيب على نفســه . فحدث نفسه :

ـ الامر قد صدر .

واتخذ قراره الثاني الحاسم .

ـ عليك ان تنفذ .

وظل واقفا . مبررا لنفسه ، مؤكدا لنفسه :

ـ حتى يصدر أمر آخر .

٥ ـ الدينمو :

يسمونه « الدينمو » . عقله ذاكرة ضخمة ، لا تنسى . يذكر كل ما تراه العين ، كل ما تسمعه الاذن . يذكر كل ما حدث ، كل مـــا يحدث . يحفظ كل القـــوانين ، واللوائح ، وتعديلات القوانين ، واللـــــوائح . يذكر ، يحفظ ، من أول مرة ، حتى الارقام ، حتى الكلمات ، حتى لون الورق ، حتى أسماء العمال ، آلاف العمـال . ساعات يومه عمل ، حركة ، تفتيش ، والعين يقظى ، والاذن صاحية. ساعات نومه ، في العمل ، حلم بالعمل . تتغير عليه وردية العمل ، ويظل يعمل . في الوردية الثالثة يوقظونه من اجل العمل . البيت يعود اليه مجبرا ، في يوم الجمعة . قال لزوجته :

ـ اعتبريني ميتا .

ونهضت الزوجة بالعبء : البيت ، والولد ، وانتظار عودته . كانت وجهه الآخر . كل مشاكل العمل يعرفها . كل مشاكل العمـــال يعيشها . حتى عمر الآلة ، حتى قطع الغيار ، المطلوبة ، والناقصة . لكنه لا يبت في مشكلة أبدا . يحملها مكتوبة على الورق . يقدمهـــا لمدير المصنع . يطلب رأيه . يعرف ان مـــــدير المصنع لا يعرف ، لا المشكلة ، ولا حل المشكلة . يهز المدير رأسه ، كمن يعرف . يساله، كمن يتكرم :

ـ ما رايك انت ؟

يقول الدينمو :

ـ الراي كذا . الحل كذا . فلنفعل كذا .

يتفكر مدير المصنع . يجيبه :

ـ طيب . نفذ .

يقول الدينمو :

ـ اذا سمحتم . تاشيرة . توقيع .

يساله المدير ، كمن يتكرم :

ـ ماذا اكتب ؟ بل اكتب انت . وانا اوقع .

يؤشر الدينمو . يوقع المدير . يرفع الدينمو راسه . يتنهـــد سعيدا . المدير هو الذي امر . المدير هو الذي وقع . ينصرف الدينمو لينفذ . يوشك المدير ان يناديه . لمح جيبين كبيرين حول عينيـــه . هالتين سوداوين بين خديه . هروفا صفراء في بياض عينيه . يـــود أن يساله :

ـ أليس لك بيت ؟

يود ان يقول له :

ـ اذهب واستريح .

لكن المدير يتذكر . هو بدونه لا شيء . العمل بدونه سيتوقف . المصنع سيغلق . العمال سيجرأون عليه . يتركه المدير يذهب . ثم .. مات مدير المصنع . مات عقـــله أولا ، ثم جسده ، من طول ما جلس خاملا . هكذا قالوا . قالوا :

ـ الدينمو كل شيء . الدينمو قتله . لذلك مات مدير المصنع.

اضطرب المصنع . تكاسل العمال . كف الدينمو فجاة عـــن الحركة . ظل هامدا في المصنع . فمن يأمره لينفذ ؟ ومن يؤشر ؟ ومن يوقع ؟ ظل حائرا كالطفل بدون امه . خجولا كالمراة بدون رجل . دعاه الرئيس الاكبر . جلس الرئيس في الكرسي الشاغر . قـال الرئيس للدينمـــو :

ـ اجلس .

جلس الدينمو حيث كان يجلس . أعطاه الرئيس سيجـــارة . قال الدينمو :

ـ لا ادخن .

قال الرئيس آمرا :

ـ دخن .

اخذ الدينمو السيجارة . بقيت في يده بلا نار . قـــال الرئيس للدينمو :

ـ مات مدير المصنع . عاش مدير المصنع .

قال الدينمو :

ـ من ؟

قال الرئيس الاكبر :

ـ أنت .

انتفض الدينمو فجاة . قال الدينمو :

ـ معذرة يا سيد .

ـ هذا امر .

ـ الا هذا الامر .

ـ لماذا ؟

ـ من يأمرني ؟

ـ انت . انت ستامر .

ـ لا اقدر .

ـ بل تقدر .

ـ لا اقدر .

تنهد الرئيس الاكبر . أوشك ان يضحك . اوشك ان يبصق . قال الرئيس وهو ينهض :

ـ انهض .

نهض الدينمو .

ـ اجلس الى هذا المكتب . في مكانك ساجلس .

جلس الدينمو .

ـ الآن انت مدير المصنع .

ـ لا . لست مدير المصنع . لا اقدر ان امر .

تنهد الرئيس الاكبر . قال للدينمو :

ـ تذكر . المدير مات . والمدير لم يكن يفكر . انت كنت تفكر

والمدير لم يكن يؤشر . انت كنت تؤشر . أليس كذلك ؟
قال الدينمو :
ـ هو الذي كان يوقع .
قال الرئيس :
ـ تعلم الآن . تعلم كيف توقع .
قال الدينمو :
ـ بعد ثلاثين سنة خدمة ؟
ـ هذا افضل .
ـ معذرة .
ـ طيب . فكر لي . أنا مدير المصنع . المدير فرضا .
ـ تفضل .
ـ امامنا مشكلة . ما هي ؟
ـ ان نوجد مديرا للمصنع .
ـ من تراه يصلح ؟
فلان .
ـ فلان ؟ لكنه عينك ، ساعدك الايمن .
ـ أعرف .
ـ وتقبل ؟
ـ حين يجلس الى هذا المكتب . سأقبل . حين يفعل .
ـ لكنه لا يعرف مثلك . لا يفكر مثلك .
ابتسم الدينمو منتصرا . وقال الرئيس الاكبر :
ـ المدير الاسبق ، لم يكن يعرف ، لم يكن يفكر .
الرئيس الاكبر ، فزع ، صرخ :
ـ انهض .
نهض الدينمو . الرئيس الاكبر أمر :
ـ ناد عينك . ساعدك الايمن .
الدينمو أحنى رأسه . وذهب لينفذ .

٦ ـ ملاحظات قارىء :

رجل الشارع ضحك . ضحك العامل . ضحك الفلاح . ضحك الحرفي . حتى التاجر ضحك ، والثائر ضحك . طوى الصحيفة ، غادر مكانه الى الشرفة . في الشرفة قفص . في القفص عصفور زينة، أصفر أخضر . العصفور شرب وارتوى . العصفور لقط الحب وشبع . العصفور شدا حتى تعب ، العصفور غنى حتى بحت حنجرتـه . العصفور رفرف في القفص . صدمته الاسلاك من كل جانب ، أعلى واسفل . العصفور رنا للخلاء . العصفور حن للطيران . حلم . تذكر. ثارت مواجعه . رجل الشارع يرى . رجل الشارع يسأل :
ـ العصفور لا يخرج من القفص ؟ والباب مفتوح له ؟ هذا مضحك. هاالعصفور ينقر في الاسلاك . يبغي ان يكسرها ، ان يقصفها . ان يجعلها تتباعد ، حتى لو سقط في البحر . توقا للحرية . حتى لـو جاع . لو مات عطشا . المنقار يوشك ان يتكسر .
رجل الشارع مد يده . فتح الباب . في لحظة . في لمحـة ، لا تلمح . العصفور وثب . طار . اندفع من باب القفص . حلـق عصفور الزينة . سوف تسقط به جناحاه . لن يطير طويلا . سوف يأكله طير عابر . طير أكبر . لن يجد ابدا حبة برغل . ظل القفص مفتوح الباب . وطائر الزينة لم يعد . رجل الشارع حدث نفسه :
ـ حلم شاعر .
رجل الشارع نادى الخادم عنده . رجل الشارع قال للخادم :
ـ اذهب . اخرج من هذا البيت .
الخادم فزع . الخادم صاح :
ـ لم يا سيد ؟ لم أخطىء !
ـ اذهب .
ـ الرحمة يا سيد . أين أذهب .
ـ من حيث جئت .
ـ يا سيد . دعني عندك . من أين آكل ، أو اشرب ، او البس ؟ لا مال لدي ، ولا أرض ، ولا متجر .
رجل الشارع مد يده في جيبه . أعطاه نقودا تكفي . رجل الشارع قال للخادم :
ـ افتح كشكا للحلوى ، والتبغ . ستربح عشرين قرشا . كنت تكلفني اكثر ، عن أجرك ، وطعامك ، وشرابك ، ومبيتك . لكنـك ستكون سيد نفسك .
الخادم لم يفكر لحظة . لم يتردد لحظة . أخذ النقود مـن السيد . أدار ظهره . ذهب مندفعا . نسي حتى ان يشكر .
رجل الشارع ضحك . أمسك بالصحيفة ، بالقفص ، بحلـم الشاعر . مزقها ، قطعة قطعة . رجل الشارع فكر : لكن السجيـن اعتاد السجن ، لذلك سيعود اليه . والعبد ألف عبوديته ، لـذلك لن يخرج منها . والدينمو مثل دوره كثيرا ، حتى نسي نفسه ، حتى صار أسيرا للجبن ، لذلك لن يكون مدير مصنع . لقد ماتوا. والشاعر لم يكذب !

(القاهرة) سليمان فياض

دار الاداب
تقدم

محمود درويش

أُحِبُّكِ .. أو لا أُحِبُّكِ

في « احبك او لا احبك » هرب محمود درويش من دائرته الشعرية الاولى ،وهاجر من صوته القديم ،ليضيف الى جرحه بعداً ثالثا ، هو بعد « الحرية » .
« احبك او لا احبك » هو الولادة الثانية لمحمود درويش ، وهو الوجه الجميل الآخر لشاعر يرفض ان يتعوّد على وجهه ..

صدر حديثا ثمن النسخة ٣٥٠ قرشا لبنانيا